أسلمة الأرض وتبعيث السماء

عماد حسن *

أتذكر هذا في مقارنة (لا تصدر إلا من بطر على الحياة) بين مصائر الكثير ممن عرفتهم وأحببتهم؛ أصدقاء وجيران، زملاء صف، رفاق تسكع، رفاق طفولة وأقارب. واحد ربما كان الأقرب إلى نفسي في تلك السنوات وكذالك واحد من الذين حصلوا على أشد المصائر حزناً وإيلاماً، هو ابن عمتي (جبار). لا أعرف! عليَّ أن أتذكر جيداً هذا الصبي، فالسنوات التي مرت فيما بعد كفيلة بمحو أي ذكرى حدسنا أنها عصية على الانمحاء.

كان العام ١٩٩١ وكنت عائدا (إلى الناصرية) من البصرة مخلفاً ورائي أربعة أعوام جامعية مجنونة قضيتها (بمحض الصدفة أيضا) في بقعة هي ساحة حرب أكثر من كونها مدينة. كانت الحرب على الأبواب وكنا مستبشرين بان الخاسر الوحيد في هذه الحرب سيكون نظام البعث الذي أثقل أرواحنا بمشهد دم طويل. كان ذلك قبل أن تصرخ جموع مُدَوّخَة بخمور الدكتاتورية: (ماكو ولي إلا علي، ونريد قائد جعفري) فقلبت أميركا موازين الحرب وأطلقت يد صدام ليعاقبنا على قصر نظرنا وطائفيتنا المضمرة. في هذه الأيام العصيبة ونحن ننتظر الحرب بتوجس أقرب إلى الرجاء، حدث ورأيت ابن العمة ذاك كان بمثل عمري وكان وسيماً، هادئاً وعميقاً كعادته. جلس أمامي صامتاً متأملاً ابنه الصغير (وسيكون الوحيد) الذي كان يخطو خطواته الأولى بطريقة أقرب للتدحرج منها للمشي. انتبه إلى نظرتي التي بَقيتْ معلقة في ذهوله وحيرته كقطرة ندى وحيدة على ورقة شجر منسية، نظر إلي وكأنه يراني للمرة الأولى منذ سنوات. ابتسم بمرح مبالغ فيه لكنه لم يخف حزناً جلياً استطعت أن اختزنه في ذاكرتي بعد كل تلك السنوات.

منعتني من رؤيته مرة أخرى ظروف القيامة التي فتحت الطائرات غطاءها السري على أكثر الأماكن حميمية وقرباً إلى نفوسنا واستكملتْ بذلك مجزرة تركها صدام في منتصفها. أعقبت ذلك انتفاضة الخارجين من حربين خاسرتين؛ قُطعتْ طرق السماء والأرض خلالها وانتهينا إلى ضياع شبيه بنجوم فاجأها الصباح. ذهب كل منا في اتجاه مختلف وكأننا خاضعون لأقدار (لا يبررها إلا عبث قادر) رُسِمتْ خطوطها قبل ملايين السنين.

علمتُ (وأنا نزيل معسكر للاجئين على حدود العراق مع الكويت) بأن ذلك الفتى الحالم قاتل لثلاثة أيام متواصلة دون طعام أو نوم حتى أصيب برصاصتين في ساقه ووقع أسيرا بيد قوات جيش واستخبارات صدام. فهمت حينها بوضوح (لم أشهده من قبل) سر تلك النظرة الحزينة والشبيهة بالغيبوبة، التي كان يوجهها لابنه الصغير. ومن بين أصدقاء ثلاثة (كنتُ قريباً منهم). أوراس الكردي الأشقر المولود في مدينة الشطرة والذي هرب وعائلته إلى شمال العراق بعد احتلال الجيش للمدن (وهو الآن يحتل منصباً مرموقاً). وتحسين مجيد، المنحدر من عائلة شيوعية صلبة قضى معظم أعضائها مقتولين غيلة. المتدين الصلب، بمثل صلابة شيوعية عائلته، هرب إلى إيران وعمل مع المجموعات الدينية هناك (عاد للعراق متخفياً ونفذ مع اثنين آخرين عملية اغتيال عدي صدام حسين الفاشلة، واغتيل هو الآخر في إيران فيما بعد وصورته الكبيرة تستقبل القادمين قبل ولوجهم جسر الشطرة الرئيسي).

أقول من بين الأصدقاء الثلاثة، بقي (جبار) أكثر المصائر مدعاة للأسى. إذ لم يسمع عنه أحد ولم يره أحد كذلك (ذكر أحدهم لعمتي الهائمة على وجهها منذ ذلك الحين، بأنه في أحد سجون الرضوانية، في بغداد، رأى جبار يقتاده اثنان من الحرس وهو يعرج وقد نمت لحيته وبدا كميت يمشي). ولم يستطع أحد من تأكيد هذه المعلومة. وجابت عمتي المسكينة كل السجون وكل المواقف وكل المعتقلات، كل دوائر الأمن والاستخبارات وبعد ٢٠٠٣ فتشت المقابر الجماعية قبراً قبراً سألتْ الناجين من تلك المحرقة فردا فرداً، شكت، صرخت، بكت، قبلت أيدي كل الذين جاءت بهم أمواج ذلك العام المخيف؛ ولم تجد شيئاً.

بعد عودتي إلى العراق عام ٢٠٠٧ زرت عمتي، وكانت عمياء، كليلة وضئيلة ككوم رماد مبتل. قبلتني وقالت لي: أنني آخر الأشياء التي تذكرها بابنها البعيد (ما زالت تعتقد بحياته). أنا الذي أخرجتني الصدفة لفيلم صامت، جلست في ذات المكان الذي جلست فيه معه قبل زمن طويل، وبدلاً من وجوده كانت على الحائط صورة قديمة مكبّرة بإطار ذهبي جمعتني معه في لحظة ميتة هي الأخرى الآن، لحظة ليس لها وجود في ذهن أي أحد سوى وجودها في ذهن صورة (حفظتنا بشكل أقلق الزمن الجاري إلى لا نهائيته) كُتب تحتها عبارة "الشهيد السعيد، ولا أظنه كذلك، جبار كاظم حافظ". فقط. عبارة كتبت بتقليدية غايرت كل ما حدث له: صورة غائمة وقطعة أرض قدمتها الحكومة، تقاسمها أخوته الأربعة. وتلك الحقب التي دخلنا فيها يوماً ولم نخرج منها ضيّعتْ من ضمن ما ضيعت، قدرتنا الفطرية على التمييز. فكل صديق يحمل في داخله عدوا كامناً لا يظهر إلا حين تحكه (كمصباح علاء الدين). صديق من الممكن أن يرسلك (كعدو أزلي) إلى الفناء، إنها أحد وأهم دروس الدكتاتوريات (التي لم تبتدئ في تموز ١٩١٧ ولم تنته بنيسان ٢٠٠٣).

كل الذي سبق أعاده علي خطابين فقيرين (كحال كل خطابات الساسة العراقيين منذ ١٩٥٨ إلى اليوم). الأول لأحد التجليات الكارثية للحاكم "بول بريمر" واعني سعادة أطول مستشار أمني في تاريخ العراق "موفق الربيعي". في تصريحه (الدون كيشوتي): سنطارد البعثيين حتى السماء. والثاني لسياسي حالم حين قال: نريد أسلمة المجتمع. وبين هذا وذاك، بين صورة البعثيين الهاربين إلى سماء (ليس من السهولة الوصول إليها بفكرهم البدائي) وبين مطارد لهم (لم تمنحه شهادة الطب التي يحملها المعرفة بان السماء ليس لها مغاليق تُفتح). ومن الجانب الآخر بين من يجهل الاختلاف بين أسلمة مجتمع ما وبين دستور تبناه نفس المجتمع، يضمن له حرية الفكر والتعبير والاعتقاد.

وبين الجميع ضاع (جبار) في اللامكان واللازمان وضعت أنا في غربة (عرضها السماوات والأرض) وضاع العراق في العراق.

> في حقب الدكتاتوريات (التي لم نخرج منها بعد)، يصعب أن نقرر من هم الأعداء ومن هم الأصدقاء. هذه الفكرة التي غالباً ما أجد نفسي بمواجهتها حين أفكر في الماضي القريب الذي نجونا منه بمعجزة تساوي معجزات الأنبياء ذاتهم. المعجزات تلك، كانت أيضا صيغاً بدائية لصدف محضة أستطيع اليوم تصنيفها على أنها تجليات ساخرة لزمن غارق في جديته. أهناك أكثر جدية من الموت؟ ذلك الذي يضع حداً لكل سخرية ممكنة.

إهدار الوقت والجهد

حسين عبد الرازق

لا يستطيع أحد إنكار الدور الذي لعبته القنوات العربية والمحلية «الفضائية» في إتاحة المعلومات وطرح وجهات النظر المختلفة أمام الرأي العام، وإقامة تواصل بين الأحزاب والقوى السياسية والمفكرين والكتاب وأصحاب الآراء والمواقف والملايين الذين يتابعون هذه القنوات والبرامج الحوارية التي تذيعها على الهواء مباشرة، رغم بعض الانحيازات في هذه القناة أو تلك.

وهذا الدور المهم تنتقص منه بعض الظواهر عانيت أحدها في الأسبوع الماضي.

ففي يوم الأربعاء الماضي تلقيت مكالمة تليفونية من أحد المعدين لبرنامج الحياة اليوم الذي يقدمه على قناة «الحياة» لبنى وشريف، وهو واحد من أنجح البرامج ومقدماه قريبان للنفس ويتمتعان بحب المشاهدين وضيوف البرنامج. وحددا الساعة التاسعة مساء موعدا للظهور المباشر على الهواء، وبالتالي فستمر سيارة القناة عليّ في الثامنة مساء. وحضرت السيارة في الموعد تماما ووصلت للقناة في التاسعة إلا ٢٠ دقيقة. ومرت الساعة التاسعة ثم الساعة العاشرة ولم تبدأ الفقرة التي دعيت للحديث فيها إلا في الحادية عشرة و١٠ دقائق بعد أن بلغ بي الضيق منتهاه واحتججت أكثر من مرة وطالبت بتجهيز سيارة لتعيدني للمنزل. وفي كل مرة يؤكد المسؤولون أنه لم يبق إلا دقائق لتبدأ الفقرة المشارك فيها. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يحدث معي هذا التأخير غير المبرر أو المقبول في قناة الحياة!!

وفي اليوم التالي (الخميس) كنت مدعواً للمشاركة في برنامج نادي العاصمة الذي يذاع على الفضائية المصرية في الساعة الحادية عشرة مساء، وسألني المعد إذا كان هناك لدي أي اعتراض على أن اظهر ومعي حازم صلاح أبو إسماعيل في الفقرة نفسها أم أفضل أن يظهر كل منا على انفراد، وأكدت له ترحيبي بأن نشارك معا أو مع أي شخص آخر، فأكد عليّ بالتواجد في الساعة العاشرة والنصف مساء، حيث أن ظهوري وحازم صلاح أبو إسماعيل سيكون في بداية الحلقة، أي دقائق بعد الحادية عشرة مساء. وكعادتي تواجدت في العاشرة والنصف مساء وحضر بعد قليل «حازم أبو إسماعيل» وجلسنا ومقدم الحلقة (أسامة كمال) نتجاذب أطراف الحديث. وبدأ المقدم برنامجه في الحادية عشرة ببعض أخبار ميدان التحرير واستدعى «حازم أبو إسماعيل» للأستوديو في الحادية عشرة و١٠ دقائق وانتظرت أن أطلب للأستوديو للمشاركة، إلا أن الأمر تأخر حتى الحادية عشرة و٥٠ دقيقة. ودخلت إلى الأستوديو وجلست بعيدا عن الكاميرات في انتظار استدعائي للظهور، ولكن الحوار تواصل بين المقدم وحازم صلاح أبو إسماعيل، وعندما وصلت الساعة الثانية عشرة والنصف كان صبري قد نفد. فقمت بهدوء بالانسحاب من الأستوديو وسلمت الميكروفون الذي وضعوه في جيبي قبل ساعة ونصف وغادرت مبنى التليفزيون في ماسبيرو محتجا، ورفضت الاستجابة للعاملين والمعدين الذين حاولوا منعي من الانسحاب مؤكدين أن فقرتي ستبدأ فورا!!

لقد حرصت على رواية ما حدث، سواء في التليفزيون الرسمي المملوك للدولة أو في تليفزيون خاص مملوك لرجال المال والأعمال، ليعرف الرأي العام مدى إهدار الوقت من جانب القائمين على هذه الأجهزة الإعلامية الخطيرة وافتقادهم لقيم مهنية أساسية وعدم احترامهم لأنفسهم وللمشاهدين قبل ضيوفهم. ولم استطع منع نفسي من مقارنة الفوضى السائدة في قناتين مصريتين (واحدة رسمية والثانية قطاع خاص) والانضباط الرائع في الإذاعة المصرية التي يسودها النظام والدقة في المواعيد واحترام القيم المهنية والمتعاملين معها، وكذلك الدقة والاحترام في قنوات غير مصرية مثل الجزيرة أو العربية أو الحرة أو البي بي سي. الطريف أن هذه القنوات المحترمة تقدم مقابلا ماديا لضيوفها مقابل وقتهم وجهدهم كما يحدث في أي مكان في العالم، بينما التليفزيون المصري وقناة الحياة وغيرها من القنوات الخاصة المصرية تستغل ضيوفها في أغلب البرامج الحوارية من دون مقابل.

وفي ظني أن المسؤولية في هذه الممارسات غير المحترمة من جانب بعض القنوات لا تقع على مسؤوليها فحسب ، وإنما يتحمل المتعاملون معها جزءا من المسؤولية لقبولهم هذا الإهدار للوقت والجهد من دون احتجاج أو رفض للتعامل معها.

كاريكاتير

■ عادل صبري

على هامش الصراحة

■ إحسان شمران الياسري

كل خميس: إستذكارا لصراحة (ابو كاطع)

نواصل في هذا العمود إعادة نشر بعض ما كتبه الراحل (شمران الياسري- أبو كاطع) في عموده الشهير (بصراحة أبو كاطع) قبل أكثر من ثلاثة عقود، لنُريح الناس، وليستذكروا سخريته ممن كانوا مسؤولين عن خلق المعاناة لهم.

بذرة الخير

لم أره منذ سنوات، لا أقول نسيته، مع أن ذاكرتي تبدو مثل بيت طوردت فيه (حية) خطرة، قبل ثلاثة أيام تسلّمت رسالته، أسمح لنفسي بنشر الجزء الختامي منها:

(.. توهمت أن بيني وبين الموت ساعات.. وقد تقرأ النعي في حقل الاجتماعيات، اعلم أنك تحزن، ولكنني أخشى أن تطرح هذا السؤال، ترى هل بقي على العهد، حتى ساعة مماته؟ أتراه نادما على ما صرف من أيام الشباب متنقلا بين سجون العراق ومعتقلاته؟ جلدتني هذه التساؤلات، الموهومة، بغصن رمان رطب. فوجدتني أكتب إليك وصية الأموات، وأقرر لا تذهبن بك الظنون.. أنتم في قلبي حتى آخر لحظة من عمري..)

صديقي لم يمت –أتمنى له عمرا مديدا مثمرا–.

ويتعين علي الآن جوابه.

يا صديق الصبا والشباب، بذرة الخير لن تموت، هذه قناعتي. أولست ابن فلاح، يا صديقي؟ أنسيت سنبلة القمح، التي أخطأها منجل الحاصد، أم انزلقت من حضن (المحّضنة)؟

تنتشر القطعان بعد الحصاد في الحقل، وتظل تدوس السنبلة شهورا بأظلافها.. وتتراءى الأرض مصلوبة تحت وهج الشمس.. ويشتد ريح السموم وتعصف رياح الخماسين.. تقتلع قشرة من وجه الأرض. وذات يوم – وقد طاب الجو– تجود السماء بمزن، فترتفع حبوب السنبلة –إياها– رأسا شامخا.. ثم تستوي زرعا –هو ذاك الذي ندعوه (چاث)– ويتكرر الحصاد وتسقط سنبلة، وقد تعاني قسوة الطبيعة أضعافاً.. ثم ترفع رأسها من جديد، حالما تلامسها قطرة ماء. ويتكرر النمو، وفي هذه المرة ندعوه: (چاث الچاث).

في قريتي يتحرج الفلاحون من حصاد العام الثالث (چاث الچاث) انطلاقا من فكرة يمكنك إجمالها بالقول الآتي: (حصدت الچاث الأول، لأن فيه بقية من جهدك، أما چاث الچاث فليس لك فيه جهد.. ومن باب أولى أن ليس لك حق حصاده.. إنها مسألة اجتهاد، وهي استطرادية يمكن إغفالها.

أعود ثانية أذكرك ببذرة خير أخرى، لن تموت وهي تعاني أضعاف ما تعانيه بذرة القمح، أعني الچمه (هل أكلت الچمه) طعاما لذيذا؟

أرأيت كيف ينبعث من تحت رمال وتراب الصحراء، حالما تبرق السماء وترعد؟

حرّاس الشريعة!!

فريدة النقاش

> طالب المستشار (طه الشريف (النائب الأسبق لرئيس محكمة النقض بإضافة المرجعية الدينية إلى الفقرة الثالثة من المادة ٤ من الإعلان الدستوري، وهي الفقرة التي تنص على عدم مباشرة أي نشاط سياسي أو قيام أحزاب سياسية على أساس ديني، ويقول المستشار كان يجب أن يضيف للحظر المرجعية الدينية أيضا.

كما دعا المستشار لجنة الأحزاب إلى دراسة برامج الأحزاب الجديدة لتبين ماهية المبادئ التي ستطبقها عند سن التشريعات الجديدة في المجلس النيابي، أو إذا تقلدت مناصب الحكومة خاصة المبادئ ذات المرجعية الدينية مثل رأيها في عمل البنوك والبورصة والسياحة وعمل المرأة وولاية غير مسلم على المسلم، والجزية وتطبيق الحدود.. إلخ.

وتوقف المستشار أمام واحدة من أخطر القضايا التي تطرحها الجماعات الدينية السياسية وهي الخلافة، ونحن نتذكر في هذا الصدد التصريح الذي أدلى به الدكتور «حلمي الجزار» أحد قادة الإخوان المسلمين إذ قال إننا – أي الإخوان وحزب الحرية والعدالة سوف نعمل على استعادة الخلافة الإسلامية.

ويقول المستشار الشريف: إن مبدأ الخلافة يهمل الارتباط بالوطن من أجل تحقيق تجمع ديني دولي.. وهو ما كان قد أكده المرشد السابق للإخوان المسلمين «مهدي عاكف» حين قال قولته الشهيرة إنني أقبل أن يحكمنا ماليزي و«طظ» في مصر.

وكان الإخوان المسلمون قد كفروا الدكتور فرج فودة واتهموه بالإلحاد بسبب ما كتبه عن عصر الخلفاء في كتابه «الحقيقة الغائبة»، وقام أحد الشبان بإطلاق الرصاص عليه وأرداه قتيلا تنفيذا لفتوى التكفير، وتقدم الشيخ «محمد الغزالي» أحد مفكري الإخوان المسلمين بشهادته «الدينية» أمام المحكمة قائلا إن عقاب «المرتد» هو القتل، وهذا القتل هو من اختصاص ولي الأمر، وأن الشاب الذي قتل «فرج فودة» انتزع لنفسه مسؤولية ولي الأمر، قال الشيخ ذلك رغم أنه من المعروف وهو خير العارفين أنه لا يوجد حد ردة في القرآن الكريم، فضلا عن أن «فرج فودة» لم يكن مرتدا ولكنه كان باحثا عن الحقيقة التي أزعجت الإخوان المسلمين حين كشف عبر البحث العلمي النزيه عن أن عهود الخلافة لم تكن جنة على الأرض، وأن الصورة المثالية التي يقدمها الإسلاميون لهذه العهود هي صورة زائفة، وقد ابتغى صانعو هذه الصورة إخفاء حقائق الصراع «السياسي – الاقتصادي» الضاري الذي عرفته هذه العهود حتى أن ثلاثة من الخلفاء ماتوا قتلا.

ويقول المستشار طه الشريف «أرجو ألا نصدق التدليس على المواطنين بأحزاب ظاهرها الأخذ بالحرية والديمقراطية وباطنها تنفيذ مبادئ الوهابية أو ولاية الفقيه أو الخوارج الذين برزوا الآن ليزداد الإرهاب وتعم الفوضى».

وتمهيدا للانتخابات العامة التي تتصور جماعات الإسلام السياسي بكل أطيافها أنها سوف تكسبها، رفض هؤلاء وثيقة المبادئ الأساسية للدستور، مستهدفين إلغاء المادة الأولى فيها التي تنص على مدنية الدولة ومبادئ المواطنة، ليكشفوا عن هدفهم الحقيقي ألا وهو إنشاء دولة دينية وكتابة الدستور منفردين على أساس المرجعية الدينية، معتمدين تفسيرهم لمبادئ الشريعة ومتمرسين خلف المادة الثانية من الإعلان الدستوري التي تقول إن الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، ورغم أن المحكمة الدستورية العليا أكدت أن هذه المادة موجهة للمشرع وحده وليس للقاضي فإن قاضيا من الجماعات الإسلامية قام بالتعامل مع هذه المادة كأنها موجهة له وأصدر حكما بتطليق الدكتورة «ابتهال يونس» من زوجها «نصر حامد أبوزيد» الباحث في علوم القرآن بدعوى أنه «مرتد» ولا يجوز لمسلمة أن تعيش مع مرتد.

ورغم أننا نعيش في عصر يرفض العقوبات البدنية انطلاقا من مبادئ حقوق الإنسان فإن الدعوة لتطبيق الحدود أي قطع الأيدي والجلد ماتزال تنطلق في أوساط الإسلاميين وعلى لسان منظريهم مثل الدكتور «محمد سليم العوا» الذي قال إن المجتمع ليس جاهزا بعد لتطبيق الحدود، أي أنه حين يكون جاهزا من وجهة نظره سوف يطبق الإسلاميون الحدود إذا وصلوا للحكم.

وبناء عليه قام أحد السلفيين بقطع أذن مواطن مسيحي،وبهذا يبشرنا الإسلاميون من حراس الشريعة بالعودة إلى الوراء قرونا باسم الدين، وسوف تبين لنا الأيام القادمة إن كان المجتمع المصري بقواه السياسية والثقافية وبتاريخ الدولة المدنية التي عاشت لقرنين من الزمان سوف يسمح لهم بذلك أم لا؟